مالك بن نبي
ونشاطه الثقافي والفكري
(١٩٠٥- ١٩٧٣)

د. حسان ريكان خلف الدليمي

كلية الآداب / قسم التاريخ

المقدمة

تمخض عن الأمة العربية ولادة العديد من رجال الفكر والسياسة والأعلام الذين برزوا في مجالات تخصصهم وكانوا نموذجاً رائعاً للإرشاد والإصلاح إذ تركوا لنا أروع النتاجات وما زال صداها مؤثراً على مر السنين وقد نالت إعجاب الباحثين والمهتمين في الوطن العربي الكبير وفي الغرب أيضاً.

إن تسليط الضوء على تلك الشخصيات لهُ الأهمية الكبيرة لإطلاع القارئ على دور هؤلاء لأنهم حقاً جديرون بالذكر والاهتمام، والحديث عن المفكر مالك بن نبي أنموذجاً لأحد هؤلاء المفكرين الذين تركوا بصماتهم في مجال الإصلاح والثقافة والسياسة فضلاً عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والدينية... فكان مفكراً جريئاً لا يتردد في قول الحقيقة على الرغم من ضغوط الاستعمار الفرنسي الذي كان لا يتوانى في توجيه العقاب إلى رجال الفكر الذين يشحذون الهمم من أجل تحرر واستقلال أوطانهم.

كانت الأحداث التي شهدتها الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠- ١٩٦١م) لها الأثر الكبير في كتابات مالك بن نبي، إذ تحدث من خلال تلك الرؤية عن الواقع العربي المؤلم في ذلك الوقت أبان فترة الاحتلال التي واكبها، وكان يتحدث باسم العروبة والإسلام، إذ إنه لم يتنكر لعروبتهِ ودينهِ، وحذر الجميع من الأخطار الآتية من الغرب، وخص بالذكر الغزو الثقافي لأنه يهدف إلى القضاء على العادات والتقاليد الأصلية التي يتحلى بها أبناء المجتمع العربي.

وتناول مالك أيضاً الإعجاز القرآني لأنه كان مخلصاً لدينهِ وأظهر للقارئ في كتابهِ (الظاهرة القرآنية) أن الرسالة السماوية التي حملها الرسول محمد ﷺ غير قابلة للشك لأنها تفوق طاقة البشر.

إن اختيارنا لموضوع البحث جاء بناءاً على أهمية التعريف برجال الفكر والإصلاح لاسيما الذين وصلت نتاجاتهم أرجاء الوطن العربي التي نادوا من خلالها باليقظة والحذر من مخططات الاستعمار والأخذ بأسباب التقدم والرقي والازدهار.

تناول البحث عدداً من العناوين الرئيسية أبرزها: الحياة الشخصية للمفكر مالك بن نبي، إذ تم تسليط الضوء على الجوانب المهمة من حياته التي أظهرت الصورة الحقيقية لظروف أسرتهِ المادية الصعبة مروراً بتنقلهِ ما بين بلدهِ الجزائر وفرنسا، ثم استقراره في

مصر وعودتهِ في نهاية المطاف إلى الجزائر وكذلك المناصب التي تقلدها في الجزائر وانتهاءً بوفاتهِ في هذا المكان.

وتناول البحث أيضاً أبرز نتاجاتهِ وأفكاره طيلة حياتهِ، وكذلك رأيه بأهمية وعلاقة الجانب الثقافي بالجانب السياسي وأثره عليه وأكد من خلالها على أهمية تضامن الثقافة مع السياسة لنجاح العمل السياسي.

كما تطرق البحث إلى رؤية مالك بن نبي في تربية النشء العربي وأهم مقومات إصلاح المجتمع، وكذلك رؤيتهِ في الحضارة من حيث أنها تعني الأصالة التي تستمد وجودها الحقيقي من الأرض بعد تفاعل الإنسان معها بشكل إيجابي.

اعتمد البحث على عدد من المصادر والمراجع كان من أبرزها كتاب أسعد السحمراني المعنون (مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً)، إذ أبرز جوانباً مهمة من حياتهِ الخاصة ودوره في مجال الإصلاح، وكذلك موسوعتي (قاموس الإعلام وأعلام العرب)، إذ أعطت جوانباً تفصيلية عن ظروفه الخاصة بشكل واضح، وأفاد الباحث من المؤلفات الخاصة لمالك بن نبي وهي تشكل المفتاح الحقيقي للولوج إلى الفكر الذي كان يحملهُ مالك بن بني بقدر المستطاع، إذ تناولهُ البحث بالتحليل الممكن لإعطاء القارئ جوانب مهمة من نشاطاتهِ المتعددة، ويمكنها أن تتسم في أفادتهِ بحياتهِ العملية، وقد تم ذكر هذه المؤلفات في قائمة المصادر والمراجع.

وأخيراً فإن هذا البحث ما هو إلا محاولة متواضعة أرجو أن تُسهم في إفادة المستمعين والقراء الكرام فيما بعد بمعلومات عن شخصية مفكر عربي مسلم يتسم بتعدد الآراء والأفكار إنه مالك بن نبي.

المبحث الأول
حياته الشخصية وأبرز مؤلفاته وتركز على مطلبين:

المطلب الأول- حياته الشخصية:

ولد في الجزائر بمدينة قسطنطينة عام (١٩٠٥م)[١].

ينتمي إلى أسرة كانت فقيرة تعاني من صعوبات مادية وهو في سن السادسة من عمره وخاصةً بعد أن توفي خال أمهُ الذي تعهده في الإنفاق على مالك وأسرته[٢].

ودخل مدرسة الكتاتيب القرآنية ليتعلم فيها، وكان يدفع مقابل ذلك أجراً شهرياً يوفره الأهل بصعوبة، وقد روي إنه ذات مرة لم يُحضر المبلغ المطلوب أخر الشهر لصاحب الكتّاب فرهنت والدته سريرها لتأمين ذلك[٣].

بقي مالك يتردد على الكتّاب أربع سنوات ولم ينقطع عن الثقافة الإسلامية على الرغم من دخوله المدرسة الفرنسية التي كانت تقع في مدينة تبسة التي عاش فيها لاحقاً[٤].

عاد إلى مدينة قسطنطينة عام (١٩١٤م) إذ أقام عند جدتهِ هناك، وطغت حالة الدلال على حياتهِ في هذه الفترة مما جعلها غير ذات فائدة مما دفع جدته القيام باستدعاء والديه ليأخذانه معهما من جديد إلى تبسة وعاش فيها حتى عام (١٩١٨م) وقد أنهى فيها دراسته الثانوية مما أهله لإكمال الدراسة في قسطنطينة[٥].

سافر عام (١٩٢٤م) إلى باريس للبحث عن عمل ولكنه لم يحظ بعملٍ مناسب فعاد إلى الجزائر، ولم تتوفر لهُ الفرصة المناسبة للعودة إلى فرنسا إلا في عام (١٩٣٠م) إذ درسَ هناك في معهد الهندسة العالي بباريس وتخرج مهندساً كهربائياً في المعهد[٦]، وبسبب تخصصهِ هذا كان مالك بن نبي يلجأ إلى المعادلات العلمية والرسوم التخطيطية في كتاباتهِ إذ برهن بأن معادلة النهوض أو النهضة = إنسان + تراب + وقت = حضارة[٧].

عاش مالك أكثر من ثلاثين عاماً في أوربا، ورغم هذه الفترة الطويلة فإنه برهن التزامه بدينه وقيمهِ وأصالته وكان تعمقهِ في الثقافة الأوربية سبباً في تحرره من بواعثها[٨].

جمع مالك إلى جانب الثقافة العلمية ثقافةً فلسفية واجتماعية واسعة ولم تكن ثقافة فكرية تقتصر على ساحة الفكر فحسب بل نضجت بحرارة المأساة التي عاشتها الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي لها الذي بدأ عام (١٨٣٠م)[٩].

كان هذا المفكر يكتب بعقلية المفكر العميق الحر الذي يدرس موضوعه دراسة شاملة وناضجة حرصاً منه ليقدم بحثاً ناجحاً منسق الأفكار ينم عن عقيدة وإيمان كاملين(١٠).

عمل من أجل الإصلاح في وسط الجزائريين والعرب والمسلمين عموماً دون خوف من النتائج(١١)، لذلك أدرك الاستعمار الفرنسي خطورة أفكاره وعاش مالك في صراع معهُ منذ أن نشر أول مؤلفاته المعنون (مشكلة النهضة الجزائرية) عام (١٩٤٨م)(١٢).

انقطعت علاقته بفرنسا بعد عام (١٩٥٦م) حينما عاد واستقر في القاهرة بعد أن شعر بصعوبة عودتهِ إلى الجزائر بوجود الاستعمار الفرنسي، أتصل هناك بالرئيس جمال عبد الناصر وقد خصصت له الحكومة المصرية راتباً شهرياً مما ساعده للتفرغ لممارسة نشاطه الثقافي، وبقي في مصر حتى عام (١٩٦٣م) بعد استقلال الجزائر نتيجةً لانتصار الثورة فيها(١٣)، وأصبح مديراً للتعليم العالي حتى عام (١٩٦٧م)(١٤).

قضى مالك بن نبي السنوات الأخيرة من حياتهِ في الجزائر حتى وفاتهِ في الحادي والثلاثين من تشرين الأول عام (١٩٧٣م)(١٥).

المطلب الثاني- مؤلفاتهِ:

ترك مالك بن نبي أثاراً مهمة في مجال الإصلاح والفكر الإسلامي من خلال مؤلفاته وكان أبرزها:

١. الظاهرة القرآنية.
٢. شروط النهضة.
٣. وجهة العالم الإسلامي.
٤. فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ.
٥. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
٦. المسلم في عالم الاقتصاد.
٧. مشكلة النهضة.
٨. ميلاد مجتمع.
٩. إنتاج المستشرقين.

١٠. آفاق جزائرية.
١١. في مهب المعركة.
١٢. دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.
١٣. مذكرات شاهد القرن[١٦].
١٤. القضايا الكبرى.
١٥. بين الرشاد والتيه.
١٦. مشكلة الثقافة.
١٧. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.
١٨. كومنولث إسلامي.
١٩. تأملات في المجتمع العربي.
٢٠. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
٢١. حديث في البناء الجديد.

المبحث الثاني
رؤية مالك بن نبى وأفكاره في المجالات السياسية والاجتماعية والدينية

أظهر مالك اهتماماً في حقل العلم والمعرفة وخلص بنتيجة مفادها وجود علاقة ترابط بين هذا العلم وذاك وقد تناولها بالآتي:

المطلب الأول- علاقة الجانب الثقافي بالسياسة العامة:

رأى هذا المفكر أن للكلمة أثر هام في توجيه المجتمع نحو طلب التحرر والتقدم[١٧]، إذ أعدها المحرك الخفي الذي إذا ما تأصل بالإنسان يصعب اجتثاثهِ إذ قال: «إن الكلمة تساهم إلى حدٍ بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع شديد في ضمير الفرد إذ تدخل في سويداء قلبه فتستقر معانيها فيه لتحوله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة»[١٨].

يرى ابن نبي أن تكون الكلمة نابعة من العقيدة والواقع الاجتماعي والثقافي حتى تلقى تجاوباً وإقبالاً من قبل جميع الناس، هذا الفهم للكلمة يلعب دوراً في التحكم بمجريات

الأمور في المجتمع، والتي أطلق مالك عليها بالثقافة التي هي المحيط الفكري الذي يتحرك فيه الإنسان مؤثراً أو متأثراً(١٩).

تزداد الحاجة إلى مواجهة إشكال الثقافة يوماً بعد أخر لأن الثقافة هي التي تسهم في حل مشكلة السياسة، فالفساد لدى الحكومات مؤشرٌ يدل على فساد ذات الإنسان في المجتمعات التي تتولى إدارة شؤونها هذه الحكومات، فمواجهة الاستعمار وأذنابه وإصلاح الحكومات لن يكون إلا بتغيير الوسط الثقافي الذي تتحكم فيه السياسة الاستعمارية(٢٠).

يبدو لنا أن مالك بن بني قد أعطى علاجاً شافياً لجميع المشاكل التي تعاني منها الشعوب بسبب السياسات الفاشلة التي تنم عن فقدان الرؤية السياسية والمهنية لدى القائمين بتولي شؤون دولهم، وأراد أن يقول ما يتمناه المواطن في كل زمان ومكان بأن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب لتكون القيادة لمن يستحقها بجدارة ولو حصل هذا لما سقطت حكومات وانهارت دول وإمبراطوريات، ولما عم الفقر والحرمان بين العديد من شعوب الأرض.

المطلب الثاني- علاقة الجانب السياسي بالثقافة العامة:

يظهر هذا المفكر أن السياسة الناجحة المقترنة بثقافة المسؤول يمكن لها أن تسهم في تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي(٢١).

إذ أن السياسة لا يمكنها أن تغير مصير مجتمع معين ما لم يتم تحديدها وفق تصور عام للعالم باعتبارها التعبير الحقيقي الملموس لثقافة حضارة مرتسمة على مخطط وإستراتيجية يتسم كلاهما بالوطنية الصادقة(٢٢).

إن السياسة الناجحة وليدة الثقافة وإذا ما تكاملت منطلقات الثقافة والسياسة عندها يمكن أن تنجح المخططات السياسية في برمجة البناء للدولة بشكل إيجابي(٢٣).

يقول مالك بن نبي عن هذا:

«هناك تضامن بين الثقافة والسياسة وليس ترتيب وأسبقية والتوفيق هذا بين الثقافة والسياسة يتحقق عن طريق الفرد لأنه هو العنصر الواعي الموجه للطاقات الاجتماعية»(٢٤).

يُظهر هذا المفكر كما يبدو اهتماماً بالغاً بالثقافة وهي رسالة لن تموت عبر الأجيال لأنها السلاح القوي للسياسي فضلاً عن إنها الدرع الحصين بوجه الثقافة الغربية

التي تتحين الفرص لتحل ضيفةً من نوعٍ خاص داخل المجتمع العربي لقتل الأصالة وكسر طوق الحياء والغيرة التي يتميز بها الإنسان في البلاد العربية والإسلامية.

المطلب الثالث- رؤيته في تربية النشء العربي:

حاول مالك بن نبي إظهار حقيقة التربية وأهميتها بالنسبة للإنسان العربي وحذر أن تكون الأخلاق مستوردة كحال المنتجات والبضائع التي أعتاد عليها الشرقيون من الدول الغربية، وغايته من وراء هذا الرأي أن لا تكون الأخلاق التي يتعلمها الناشئة صناعة استعمارية تنمو معهم في كافة مراحل الحياة(٢٥).

ويرى أيضاً أن كل عمل مدروس وفقاً لضوابط معينة وبشكل موضوعي يكون مصيره النجاح، وكذلك الحال نفسه في تربية النشء، ولهذا يقول: «إن مهمة تربيتنا الشعبية والمدرسية إنما تشمل في تبصيرها لنا بأن ليس هناك شيء سهل ولا شيء مستحيل وإنما لكل مشكلة واقعية حلها»(٢٦).

ويبين هذا المفكر بأن صرف مبالغ طائلة من الدخل القومي على التربية في البلاد العربية لا يوازي النتائج المرجوة عن هذا الصرف والسبب في ذلك تلك الفوضى والمزاجية التي يتسم بها الحكام والتي تنعكس على كل جوانب الحياة ومنها التربية ولذلك يحصل هدر كبير للطاقات وضياع للأجيال في الوقت الذي يُصابُ فيه هؤلاء الحكام بالدهشة لما وصلت إليه الدول الأوربية من تطور(٢٧).

وجه هذا المفكر أيضاً المربين في البلاد العربية أن يعلموا أبناءهم على الأخذ بالأسباب التقدم ويحذر في الوقت نفسه من استيراد الأفكار الدخيلة التي تضر بمصلحة المجتمع العربي والإسلامي(٢٨).

وهو يرى بأن الحكومة مهما كانت ما هي إلا آله اجتماعية تتغير تبعاً للوسط الذي تعيش فيه، فإذا كان الوسط نظيفاً حراً فلا يمكن للحكومة أن تواجه إرادته في قول الحقيقة أو اتخاذ الموقف الذي يراه مناسباً، أما إذا كان هذا الوسط ميالاً إلى سياسة الاستعمار فإن حكومته ستكون استعمارية، وعليه لا يمكن لشعب أن ينجو من الاستعمار إلا بعد أن تكون له إرادة وطنية صادقة تتسع لأخذ الثأر من المستعمر(٢٩).

أثبتت تجارب الشعوب ومنطقها الحضاري بأن الثقافة لا يمكن استيرادها بنقلها من مكان إلى أخر بل يجب خلقها في نفس المكان، فالبيئة تقدم لنا عناصرها بشكل متراكم وغير منظم ولهذا من الواجب القيام بترتيب عناصرها والاستفادة من مكوناتها الإيجابية التي تخدم المجتمع(٣٠).

ويرى مالك بن نبي بأن صناعة الأفكار والعناصر الثقافية وفق المنهج الإسلامي ضرورة حتمية(٣١)، فهو يقول: «إن المجتمع في عهد التشديد لا يمكن أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج... علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى أن نكشف طريقاً نتصدر فيه موكب الإنسانية وأن يعلموها كيف نواكب الروس أو الأمريكان في طرائقهم وكيف نتبعهم»(٣٢)، على الرغم من أن القرآن الكريم هو مصدر العلوم جميعاً لاحتوائهِ على حقائق عن الكون والطبيعية والتاريخ والنفس الإنسانية التي يعجز عنها هؤلاء وأسلافهم(٣٣).

دور المرأة في تربية النشء:

لم يغفل هذا المفكر دور المرأة العربية المسلمة في التربية فنظر إليها على أنها عماد الأسرة في إعداد أفرادها بما لها من تأثير تربوي على الأجيال فهي المدرسة الأولى التي تنطلق منها مسيرة الحياة بكافة أدوارها، ولكي تكون المرأة ناجحة في أداء هذا الدور أكد مالك بن نبي على ضرورة حل مشاكلها الاجتماعية لأنها تعد مشاكل إنسانية يتوقف على حلها تقدم المدنية، وبدون ذلك فقدت المرأة وظيفتها من حيث هي وسيلة لحفظ الأسرة وبناء المجتمع(٣٤).

ورأى إنه من متطلبات إصلاح التربية في المجتمع العربي أن تغير نظرة المرأة إلى نفسها ونظرة المجتمع الدونية لها في السابق، فهي تعد نصف المجتمع، فالمرأة والرجل قطبا الإنسانية ولا قيمة لأحدهما بغير الآخر، وكانت نظرته إلى المرأة بأنها مفجرة الطاقات وواحدة من ركائز التربية القويمة، وبصلاحها يمكن صلاح المجتمع، ونظراً لهذه الأهمية فقد طالب هذا المفكر بضرورة محاربة النظرة الدونية للمرأة التي كانت سائدة في المجتمعات الجاهلية وكان ظهور الإسلام ثورة إنسانية على ذلك الواقع المتخلف فأعطى المرأة حقها الاجتماعي والإنساني والفكري(٣٥).

المطلب الرابع- الحضارة في رأي مالك بن نبي:

يؤكد بهذا الصدد على أن حل أية مشكلة من مشكلات المجتمع يخرج عن نطاق الطريق إلى الحضارة هو حل لا يمكن له أن يصيب جوهر المشكلة، فمشكلات التخلف مثلاً كلها أثرٌ لمشكلة واحدة في حل المشكلات جميعاً إلا وهي (الحضارة) التي عدها المفتاح السري للوصول إلى عمق المشكلة وبالتالي حلها(٣٦).

ويرى أيضاً أن مشكلة الشعوب بشكل عام ناجم في الأصل عن مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتقِ فكره إلى مستوى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في معرفة العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها(٣٧).

ودعا إلى تغيير النفس الإنسانية والابتعاد عن الأنانية الشخصية لكي يتم تغيير المجتمع وذلك بما يخلق فيه الشعور بالواجب تجاه الآخرين، فإذا تم إصلاح النفوس سيتم مواجهة المشكلات بروح جديدة بشرط تظافر الجهود لتحقيق هدف واحد وفكرة واحدة هي فكرة الحضارة(٣٨).

يقول مالك بن نبي: «إن الحضارة ليست في أجزاء مبعثرة ملفقة ولا مظاهر خلابة بل هي جوهر ينظم جميع أشيائها وأفكارها وروحها وقطب يتجه نحو تاريخ الإنسانية فتاريخ الإنسانية يتجه نحو الحضارة المسيطرة على العالم... إنه يؤرخ لها ولأحداثها جميعاً»(٣٩).

وإذا كانت الحضارة هي الغاية التي تريد أن تسعى إليها فإن الحضارة لا يمكن أن تستمد وجودها من مصدر غير الأرض... إنها في النهاية: الإنسان + التراب + الوقت. فنتاج الحضارة كما يوضح هذا المفكر لا يمكن أن يتكون من دون هذه العناصر الثلاثة الأساسية(٤٠).

يبدو لنا أن مالك بن نبي في هذا الجانب يؤكد على المقومات الأساسية للحضارة فلا يمكن لحضارة أن تقوم دون وجود تفاعل بين الإنسان والطبيعية ويتخلل هذا التفاعل إدراك أهمية احترام الوقت الزمني وأن تكون له قدسية خاصة وهذا يذكرنا بالقول المأثور: (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

المبحث الثالث

إعجاز القرآن عند مالك بن نبي

المطلب الأول- الإعجاز لغةً واصطلاحاً:

عرّف مالك بن نبي مفهوم الإعجاز كما ورد عند المختصين والباحثين بهذا الشأن، فقد ذكر بأن الإعجاز هو الإيقاع في العجز كما يرى أهل اللغة، أما اصطلاح الإعجاز عندهم فيرون إنه في القرآن يعني الحجة التي يقدمها القرآن إلى أعداء الإسلام الذين لديهم شك في عظمة الخالق ليعجزهم بها(٤١).

أما الإمام الشريف الجرجاني في كتابه (التعريفات)، فقال: الإعجاز في الكلام هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق(٤٢).

كما قال: الإعجاز هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته(٤٣).

ويبدو أن مالكاً في عرضه لمفهوم الإعجاز يريد تقديم المعجزة التي يتقبلها العقل البشري ولكنها في الوقت نفسه تفوق قدرة البشر على الإتيان بمثلها فأراد أن يُظهر صدق الرسالة المحمدية.

وبناءً عليه فرض مالك في تعريفهِ لمعنى الإعجاز ثلاثة شروط هي:

١. أن يكون خارقاً للعادة، وفوق طاقة الجميع لكونه وسيلةً لتبليغ الدين الجديد.
٢. أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه.
٣. أن يكون الإعجاز في مستوى إدراك الجميع لكونه حجةً للناس جميعاً، إذ لا قيمة له ولا فائدة منه إذا كان فوق إدراك المخاطبين(٤٤).

المطلب الثاني- مفهوم الإعجاز عند مالك بن نبي:

لم يتوقف مالك بن نبي عند هذا الفهم لمعنى الإعجاز أو شروطه بل قام بدراسة التطور التاريخي لفكرة الإعجاز منذ بداية نزول القرآن إلى العصر الحديث وعمل على تقسيمه على ثلاث مراحل أساسية، فقال: «يجب أن يكون إعجاز القرآن صنعة ملازمة له عبر العصور والأجيال، وهي صنعة ملازمة له عبر العصور والأجيال، وهي صنعة يدركها العربي في الجاهلية بذوقهِ الفطري كعمر ﷺ أو الوليد، أو يدركها بالتذوق العلمي كما فعل

الجاحظ في منهجهِ الذي رسمه لمن جاء بعده، ولكن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي، وإمكانات عالم اللغة في العصر العباسي، وعلى رغم هذا فإن القرآن لم يفقد بذلك جانب الإعجاز لأنه ليس من توابعه بل من جوهره»[٤٥].

ونرى أن ما ذهب إليه مالك في قضية الإعجاز هو مراعاة إدراك الناس ومستوى تفكيرهم تبعاً للمراحل التاريخية التي يمر بها الإنسان، فلكل عصر أدواتهِ المعرفية مما يترتب عليه تفاوت في مستوى الآراء بين العلماء والمختصين بهذا المجال، ولكن يبقى جوهر القرآن ثابت والأدلة والبراهين لا تغيرها الآراء المتفاوتة حول إعجاز القرآن الكريم.

ويرى مالك أيضاً أن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي الذي كان يمتلك الأدوات المعرفية التي لا تهديه إلى الطريق القويم وذلك بسبب التطور الكبير الذي شهده العصر الحديث في مجالات العلوم وطرق ومناهج البحث التي اعتمدت جميعها على المنهج العلمي الحديث الذي يتسم بالدقة والموضوعية في الوصول إلى الحقيقة، ويترتب على هذا وذاك ضعف وتراجع الذوق اللغوي وخاصةً فيما يتعلق بفهم إعجاز القرآن وتذوقه[٤٦].

وعلى الرغم من هذا فإن القرآن الكريم بقى راسخاً لم يفقد جانب الإعجاز لأنه الأصل والجوهر، وغير قابل للاجتهاد في كل زمانٍ ومكان... ولكن المسلم يتناول الإعجاز أحياناً بصور متعددة تبعاً لتحليل المختصين في هذا المجال إلا أن الجوهر كما ذكرنا لا يختلف عليه اثنان[٤٧].

يبدو أن مالكاً أراد أن يضع حلاً لمشكلة التفسير القرآني لتعريف فكرة الإعجاز أمام العقل الإصلاحي ويبرهن على هذا بقوله:

«إن مشكلة التفسير القرآني هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي»[٤٨].

ونرى إن مالكاً يؤكد مرةً أخرى حقيقة التفاوت، في التفسير القرآني بين هذا وذاك ناجمٌ عن التباين في الثقافة الدينية، ولكن الجميع متفقون على أن حجج القرآن وبراهينه الدالة على سموه وإعجازه أمرٌ له أهمية خاصة في عصرنا الحاضر الذي يتطلب من

المفسرين الاجتهاد في بلوغ الرأي الراجح الذي يؤكد على تمسك المسلم بدينهِ ورسالة نبيه محمد ﷺ.

لم يغفل مالك المنهج النفسي فقد طبقه على الآيات القرآنية للدلالة بوضوح على أهمية الجانب العلمي لإظهار صدق الرسالة السماوية التي حملها الرسول محمد ﷺ بما يعجز البشر على الإتيان بمثلها(٤٩).

وبالمعنى العام الذي نعرفه على كلمة علم تدخل في هذا الإعجاز الحقائق التي حواها القرآن عن النفس الإنسانية بشكل عام وكذلك السنن الكونية ودساتير الحياة التي تكفل السعادة للبشر كما سنها القرآن الكريم بالقوانين الشرعية، وأصبح واضحاً لدى العديد من الدارسين والمهتمين بقضية الإعجاز أن القرآن الكريم يمتلك نظرة شمولية ومتماسكة عن الكون والحياة الإنسانية بكل صدق وواقعية(٥٠).

وقد عزز ما ذهب إليه مالك عن إعجاز القرآن في كتابه (الظاهرة القرآنية) وكذلك رأينا بهذا الصدد ما قاله المفكر الفرنسي موريس بوكايل (MORICE BOCAILLE) في كتابه المعنون (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث)، أظهر هذا المفكر إعجاباً بالقرآن الكريم وإعجازه العلمي عندما قال: «لا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمعة العلمية في القرآن كانت من تأليف بشر، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ، لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على إنه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانةً خاصة جداً، حيث أن صحتهُ أمرٌ لا يمكن الشك فيه وحيث أن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي»(٥١).

يمكننا أن نفهم بإيجاز أن مالكاً في تناوله قضية الإعجاز القرآني أكد على ركائز أساسية مفادها تقديم الحجة القرآنية لإثبات حقيقة ومصدرية القرآن الإلهية التي تفوق طاقة البشر بشرط أن يكون في مستوى إدراكهم وملبياً لاحتياجاتهم الدينية والدنيوية التي تضمن العدل والمساواة بين هؤلاء البشر من المسلمين.

ولم يغفل مالك الجانبين النفسي والعلمي في دراسته لإعجاز القرآن أملاً أن يكون أنموذجاً رائعاً يستهدي بهِ من يحمل في قلبهِ أو عقلهِ أي مقدار من الشك أو عدم القناعة التامة بهذا الدين القويم.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة وهذا الجهد استخلص أهم النقاط الجوهرية التي توصلت إليها:

١. التعرف على مراحل حياة مالك بن نبي وما تضمنتهُ من أحداث عامة ونشاطات ثقافية وسياسية، فتبين إنهُ على الرغم من الظروف القاسية التي تعرض لها في بلدهِ الجزائر أو بعد سفره إلى فرنسا إلا أنه تمكن من تذليلها فأصبح أخيراً أحد رجال الفكر البارزين في الوطن العربي.

٢. وقد كشفت لنا كتاباته التي اتسمت بالجرأة في الطرح مواقفه الوطنية التي عبرّ من خلالها عن صدق انتمائه لبلدهِ، وفي الوقت نفسهِ أكد صدق حسهِ القومي عندما حذر من أساليب الاستعمار الأجنبي ودعا إلى ضرورة التحرر من سيطرتهِ عن طريق إتباع سياسية حرة وحكيمة بعيدة عن تأثير الأطراف الغربية التي لا تمت إلى الأمة العربية بصلة منبهاً بعدم الخلط بين مفهوم الحضارة العربية وغيرها من الحضارات الأخرى من حيث أن الحضارة العربية هي التي تعبر عن القيم والمبادئ الأصلية التي تليق بأبناء الشعب العربي.

٣. وطالب هذا المفكر الحكام العرب أن يتسلحوا بالثقافة لنجاح مهامهم السياسية، ومن جانب آخر فقد أكد على ضرورة الأخذ بأسباب الرقي والتقدم واتخاذ الدول الصديقة التي أخذت نصيباً من التطور أنموذجاً لها في مسيرتها العامة.

٤. كانت لتجربتهِ في الحياة وحسهِ الوطني ونضج وعيه السياسي أثر واضح أنعكس إيجابياً على مؤلفاتهِ، ويبدو أن الحياة السياسية التي كان يعيشها في خضم الاحتلال الفرنسي قد حركت هواجسه باتجاه الكتابات التي دعت إلى شحذ الهمم ونادت بالإصلاح الاجتماعي والثقافي والسياسي.

٥. أما أسلوبه فكان أدبياً ممزوجاً بالأسلوب الفلسفي وهذا يدل على ثقافته الواسعة الناجمة عن إطلاعهِ الواسع بأمور الحياة وحقول المعرفة المتنوعة مما أهلّهُ في تحليل جوانب متعددة من الظواهر الاجتماعية والسياسية وغيرها.

٦. وفي النهاية أكد مالك بن نبي على تمسكهِ بجذوره العربية الأصيلة ولم يتأثر بالثقافة الأوربية على الرغم من السنوات التي عاشها بعيداً عن بلادهِ إذ عاد أخيراً إلى الجزائر فترك لنا عصارة جهدهِ لتكون نبراساً يستضيء بهِ القارئ العربي وغيره من المهتمين بحقول العلم والمعرفة.

هوامش البحث

(١) خير الدين الزركلي، قاموس الإعلام وتراجم لأشهر الرجال والنساء والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م: ٢٦٦/٥.

(٢) ينظر: أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، دار النفائس، الجزائر، ١٩٨٦م: ص١٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ص١٣.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ص١٥.

(٦) ينظر: محمد المبارك، مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م: ص٩٠.

(٧) نقلاً عن مجموعة من الباحثين العراقيين، موسوعة أعلام العرب، ط٥، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٠م: ٤٣٣/٥.

(٨) محمد المبارك، المصدر السابق: ص٩٠.

(٩) المصدر نفسه: ص٩١.

(١٠) مجموعة من الباحثين العراقيين، المصدر السابق: ص٤٣٣.

(١١) السحمراني، المصدر السابق: ص١٨.

(١٢) مجموعة من الباحثين العراقيين، المصدر السابق: ص٤٣٣.

(١٣) السحمراني، المصدر السابق: ص١٨.

(١٤) الزركلي، المصدر السابق: ص٢٦٦.

(١٥) السحمراني، المصدر السابق: ص١٨.

(١٦) السحمراني، المصدر السابق: ص١٩.

(١٧) زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م: ص٥٥.

(١٨) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مستقاي، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩م: ص٢٢.

(١٩) ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة: ص٨٣.

(٢٠) المصدر نفسه: ص٣٠– ٣١.

(٢١) ينظر: مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، مكتبة عمار للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م: ص٦٢.

(٢٢) ينظر: مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٤م.

(٢٣) ينظر: مالك بن نبي، تأملات في المجتمع العربي، دار العروبة، القاهرة، ١٩٦٣م: ص٢١–٢٢.

(٢٤) ينظر: مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩م: ص١٩.

(٢٥) ينظر: مالك بن نبي، آفاق جزائرية: ص١٩٠، وكذلك ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

(٢٦) مالك بن نبي، آفاق جزائرية: ص١٨٩–١٩٠.

(٢٧) ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ: ص١١٦.

[٢٨] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة: ص٣٠-٣١، للتفاصيل عن مساوئ الأفكار المستوردة، ينظر: عمر لطفي، المستشرقون والقرآن، ط١، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١م: ص٢٠ وما بعدها

[٢٩] ينظر: مالك بن نبي، آفاق جزائرية: ص١٣٠-١٣١.

[٣٠] ينظر: مالك بن نبي، آفاق جزائرية: ص١٣٠-١٣١.

[٣١] ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ص٥٤.

[٣٢] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة: ص١١٦.

[٣٣] ينظر: نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م: ص٢١٨.

[٣٤] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة: ص١١٧.

[٣٥] ينظر: المصدر نفسه: ص١١٨.

[٣٦] ينظر: مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، ترجمة عمر كامل مسقاوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ: ص١٣-١٤.

[٣٧] ينظر: المصدر نفسه: ص١٤.

[٣٨] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة: ص٣٥.

[٣٩] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة: ص٣٦.

[٤٠] ينظر: مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد: ص٢٤.

[٤١] ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ص٢٦.

[٤٢] ينظر: المصدر نفسه.

[٤٣] ينظر: المصدر نفسه: ص١١٢.

[٤٤] ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ص٦٧.

[٤٥] مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص٦٦-٦٧.

[٤٦] ينظر: المصدر نفسه، الظاهرة القرآنية: ص٦٧.

[٤٧] المصدر نفسه.

(٤٨) ينظر: المصدر نفسه، الظاهرة القرآنية: ص٥٩.

(٤٩) صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ط٣، دار عمار، عمان، ١٩٩٢م: ص٢٦٢.

(٥٠) Absa Ahamed , Intllectual Discourse – pathology of heart the holy quran , 11 u Malaysia , v 7 n ; 1999 , p;79

(٥١) موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ: ص٢٨٦، وكذلك ينظر: أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م: ص١٧٣-١٧٤.

المصادر والمراجع

أولاً- الكتب العربية والمعربة:

١. أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.
٢. أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، دار النفائس، الجزائر، ١٩٨٦م.
٣. زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.
٤. صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ط٣، دار عمار، عمان، ١٩٩٢م.
٥. عمر لطفي، المستشرقون والقرآن، ط١، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١م.
٦. مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٤م.
٧. مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، مكتبة عمار للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م.
٨. مالك بن نبي، تأملات في المجتمع العربي، دار العروبة، القاهرة، ١٩٦٣م.
٩. مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، ترجمة عمر كامل مسقاوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ.

١٠. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مستقاي، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩م.
١١. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.
١٢. مالك بن بني، مشكلة الثقافة، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.
١٣. محمد المبارك، مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.
١٤. موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ.
١٥. نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.

ثانياً- المصادر الأجنبية:

Abas Ahamed , Intllectual Discourse – pathology of heart the holy quran , 11 u Malaysia , v 7 n ; 1999:

ثالثاً- الموسوعات:

١. خير الدين الزركلي، قاموس الإعلام وتراجم لأشهر الرجال والنساء والمستعربين والمستشرقين، ج٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
٢. مجموعة من الباحثين العراقيين، موسوعة أعلام العرب، ج١، ط٥، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٠م.